عُمَرُ "وكبرياءُ قريش"!

للأستاذ أنور المعداوى

فيلسوف من فلاسفة الحكم .. ولا نعنى أنه كان من أصحاب المذاهب والنظريات، أولئك الذين يضعون للدولة نظاما فلسفيا تعمل به، ومنهجا مدروسا تسير عليه، وفقا لميولهم الفكرية الخاصة فى محيط السياسة والإدارة والاقتصاد

لم يكن عمر بن الخطاب واحدا من فلاسفة الحكم بمعنى هذه الفلسفة فى العصر الحديث، حين تفهم على أنها طريقة معينة لنظم الإدارة لا تصلح بغيرها الإدارة، وخطة مفصلة لإقامة نوع من الحكومة لا تنجح بغيره الحكومة، على نحو ما يفكر الفلاسفة الإداريون من أشياع الفاشية أو الشيوعية أو الاشتراكية فى هذه الأيام .. لم يكن واحدا من هؤلاء بهذا المعنى المفهوم، وإنما كان واحدا من فلاسفة الحكم حين تكون الفلسفة خبرة بدخائل النفوس، ودراية بأحوال الناس، وبصرا بما تتجه إليه منهم شتى العواطف والنزعات، وعلى هذه الأسس جميعا قامت فلسفة عمر الإدارية حين يرجى صلاح الأمور بين الحاكم والمحكوم

هو فيلسوف بهذا المعنى الأخير إذا كانت الفلسفة فكرا صائبا يلمس مواطن الضعف فى أخلاق الرعية، ونظرا ثاقبا يلمح مواضع العلل فى كيان الدولة، ورأيا نافذا يقرن الصرامة بالعدل وهو يواجه المرض وداءه جمعته فنون من العلاج!

ولا نريد هنا أن نعرض لمختلف الجوانب فى فلسفة عمر الحكومية فهى متعددة المعالم متنوعة الأهداف، ولكن الذى نريده من هذه الكلمة هو جانب واحد يدل به المثل الفرد على غيره من الأمثال .. هذا الجانب الواحد الذى يصور لنا الطبيعة العمرية فى تصريف الأمور، بما عرف عنها من عبقرية القائد وحنكة الحاكم وكياسة المدير. هناك فى مواقفه الحازمة من كبرياء قريش، أو من تلك الأرستقراطية القرشية التى لم يهذب من جموحها إنسانية محمد ولا سماحة الصديق!!

لقد كان عمر يعلم من أمر قريش ما قد يعلمه غيره من الناس. وليس فى هذا العلم بطبيعة الظواهر النفسية مايبهر أو يروع حين يقف العقل بعلمه عند هذا الحد ولا يزيد، لأنه قسط مشترك من المعرفة قد يتساوى فيه كل صاحب حظ من الأمية أو كل صاحب قدر من الذكاء .. ولكن امتياز عمر فى هذا المجال يتمثل فى تخطى المنظور إلى ما وراء المنظور، وانتقال الوعى من رؤية العيش إلى رؤية الفكر، واحتشاد العقل لتفسير الظواهر النفسية فى ضوء ما يصحبها من أعمال وما يعقبها من أحداث!

هنا يتركز امتياز عمر؛ فهو يعرف عن قريش أمورا لا تخفى على أمثاله من البصراء: يعرف عنها تلك الكبرياء الموروثة عن مكانها فى الجاهلية، ويعرف عنها هذا الصلف المكتسب من سيادتها فى الإسلام، ومن هاتين الزاويتين قدر كل ما يمكن أن تتسم به الأرستقراطية القرشية من أسباب الزهو ومظاهر الخيلاء. لقد كان هذا الحى من أحياء العرب هو صاحب الكلمة الأولى قبل أن يظهر فى الأفق محمد. كان له المجد الذى يأتيه من عزة الدنيا وزعامة الدين: فهو القائم على مناسك الحج يستأثر بها من دون العرب جميعا، ويتسلط بها من دون العرب جميعا، على القبائل كافة. ويستمد من هذه السلطة الدينية كل منابع القوة والرفعة والتفوق على غيره من الأحياء .. وهو صاحب التجارة الضخمة والمال الوفير، وما يتبعهما من سمعة الشهرة ونفاذ الكلمة ودافع السيطرة والغلبة والافتحام. كان له هذا كله قبل أن تسطع أضواء الرسالة المحمدية فى سماء الجزيرة العربية، وحين سطعت هذه الأضواء كان لقريش حق آخر لا يزاحمها فيه مزاحم ولا يجادلها فيه إنسان، وهو شرف الانتساب إلى محمد الزعيم وشرف القرابة من محمد الرسول ..

وحسبها من هاتين الناحيتين أن تغلو وتمعن فى الغلو ، وأن تطمع وتسرف فى الطمع ، وأن تطمح وتغرق فى الطموح ؛ ولا عجب إن عادت الأرستقراطية القرشية فيما ورثته من معانى السلف ومعالم الكبرياء ، ولا عجب أيضا إن مضت فى طريقها جامحة لا يكاد يهذب من جموحها إنسانية محمد ولا سماحة الصديق !

نعم ، لم يهذب من جموحها هذا الذى قلناه . وإننا لنرمز للأرستقراطية القرشية فى عهد النبى وأبى بكر بمثل واحد هو خالد بن الوليد .. لقد كان خالد مثلا صادقا ووجها سافرا للملأ الأرستقراطية المتميزة بالألوان من الفطرسة والاستعلاء ، ولعل ما كان يثير من غلوائه أنه كان واحدا من قريش ، يقبس من أمجادها مجده ثم يضيف إليه مجد القائد الظفر لجيوش المسلمين . وكل هذا قد دفع ابن الوليد إلى شىء من الازدراء للغير وإلى أشياء من الزهو عليه ، كأن يكون هذا المزدرى رجلا كعمار بن ياسر على سبيل المثال .. عمار الذى اتى فى سبيل الدعوة من صنوف الذل وضروب الهوان مالم يلقه إنسان ، عمار الذى عاش مجاهدا ومات شهيدا وعطر صفحات التاريخ بمداد التضحية وسطور الفداء ؛ عمار هذا يخاصمه خالد فى حياة محمد ثم ينسى جهاده فى سبيل الله وفضله فى نصرة الإسلام ، ولا يذكر له غير شىء واحد وهو يغلظ فى القول ويشتد فى الخصومة ، لا يذكر لعمار غير أن أمه « سمية » كانت أمة من إماء مخزوم ، وأن أباه « ياسرا » كان عتيقا من عتقاء مخزوم ، وهى حى من أحياء قريش كان من تتيانه خالد بن الوليد .. ومعنى هذا كله فى منطق الأرستقراطية القرشية أن العبيد لا يحق لهم أن يرفعوا الرءوس أمام السادة !!

وينطلق عمار إلى الرسول ليحتكم إليه شاكيا ابن الوليد ، ويقبل خالد فى موكب من كبريائه القرشية ليواجه عمارا أمام النبى بمثل ما واجهه به ، فيصمت عمار ويطرق محمد .. وحين تنتهى الأرستقراطية المتعالية من تهجمها على ابن ياسر وابن سمية ، يرفع رأسه الرسول الكريم وينطق الإنسان العظيم ، ينطق بعبارته الخالدة خلود الحق ، الباقية بقاء العدل ، الراسخة رسوخ اليقين : « من عادى عمارا فقد عاداني » !.. قالها محمد ولم يزد ، ولكن العبارة الموجزة كان فيها من الزجر ، وكان فيها من الردع ، وكان فيها من التأنيب والتثريب ، كان فيها من هذا كله ما أشعر خالدا بالخجل وما جعله يطلب الصفح من الرسول ويلتمس العفو من عمار !

ولكن هل رجع خالد عن طبعه وهل عدل عن سيرته بعد وفاة الرسول ؟ إن سماحة الصديق بعد إنسانية محمد ، لم تستطع أن تخفف من حدة تلك الغلواء القرشية أو توقف من اندفاعها فى طريق .. وها هو التاريخ ينقل إلينا موقف خالد بن الوليد من مالك بن نويرة حين قتله بغير حق ليتزوج من امرأته الحسناء . وها هو ينقل إلينا مرة أخرى كيف ثار عمر من أعماقه على هذا العمل الذى لا يقره العدل ولا يرضاه الضمير ، وكيف خذله أبو بكر حين طلب إليه أن يعزل ابن الوليد حتى لا يكون قدوة سيئة لمن هم تحت إمرته من قواد المسلمين . لقد كان أبو بكر رجلا سمح النفس لين العريكة موطأ الأكناف يعمل بهدى محمد ، وما دام محمد فى رأيه قد وضع خالدا على رأس الجيش ثقة بقدرته واعترافا بمكانه ، فلا يحق لابن أبى قحافة أن يخرج على تلك الثقة العالية فيعزل قائدا رضى عنه الرسول .. ويسكت ابن الخطاب على مضض ويسرها فى نفسه إلى حين !

كان عمر كما قلت لك يعرف من أمر قريش ما قد يعرفه غيره من الناس ، ولكنه كحاكم فيلسوف خبر طبائع النفوس ، كان يدرك أن قريشا كالطفل المدلل لا تنفع معه كلمات الزجر ولا تحول دون رعباته ألفاظ التأنيب ، وإنما يصلح أمره بالحكم الحازم واللقاء الصارم ، و« الدرة » التى لا تفرق حين تعلو الرءوس بين كبير وصغير . كان يخشى الفتنة وينشد العدل ويطمح فى مرضاة الله ، وكانت الفتنة التى يخشاها هى ما يعرفه عن قريش من حب للسيطرة ورغبة فى الاستعلاء ، وطموح لا يقف عند حد فى سبيل فرض الكلمة على غيرها من الناس . وأى فتنة أشد خطرا وأبعد أثرا من أن تلغى الأرستقراطية القرشية شعار الدعوة ودستور الإسلام : وهما لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم ؟ إن الإسلام لم يعترف بفضل غير فضل الجهاد ، ولا بمنزلة غير منزلة التقوى ، ولا بجاه غير جاه الدين ، ولا بسلطان غير سلطان العدل والمساواة .. فإذا كانت قريش لا تريد أن تعترف إلا بعزتها فى الجاهلية ومكانتها فى الإسلام وقرابتها من الرسول ، فهذه هى الفتنة التى كان يخشاها عمر ويقدر عواقبها فى

تشتيت الشمل وتفريق الكلمة وتصدع البناء . ومن هنا وقف ابن الخطاب فى وجهها بكل ما أوتى من حزم الحاكم وحكمة الفيلسوف : الدرة فى يمينه تأديب وتهذيب ، والكلمة على لسانه تشريع وقانون !!

بهذه الفلسفة الحاكمة وبعد وفاة أبى بكر ، واجه عمر كبرياء السادة من قريش .. عزل خالدا من القيادة والمعركة دائرة ليضع فى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، لأنه لم ينس لابن الوليد تلك الهفوة التى أقدم عليها يوما مطمئنا إلى سماحة الصديق ، وحتى لا يكون كما سبق أن قلت قدوة سيئة لمن هم تحت إمرته من قواد المسلمين ، ولعله قد أراد أن يكبح جماحه ليكون عبرة لأمثاله من الجامحين . ولم يكتف بهذا بل أخذ يراقبه ليقضى على البقية الباقية فيه من زهو الكبرياء القرشية ، وليجعل منها آخر الأمر قوة منهوكة لا تكاد تؤمر حتى تطيع . ويقص علينا التاريخ أن عمر دخل المسجد ذات يوم فوقعت عيناه على خالد وقد رشق فى قلنسوته عددا من السهام ، مختالا كما يختال بريشه المنفوش كل طاووس من الطواويس .. وتعمد يمين عمر بالدرة ليعلوها رأس هذا الطائر المختال ، وتعمد شماله لتنزع السهام ملقية بها إلى خارج المسجد دون أن يسمع كلمة اعتراض ، ويهتف الجبار العادل فى صرخة خالدة : إن الله لا يحب كل مختال فخور ، وان تزهى قريش وفى ابن الخطاب عرق ينبض !!

ويقص علينا التاريخ مرة أخرى أن عمر كان قد حدد يوما ليقسم فيه الغنائم على المسلمين ، وحين أقبل اليوم المرتقب تجمع الناس من حوله وازدحموا عليه ، حتى لم يبق مكان لقدم . ونظر عمر إلى رجل يدفع الناس بمنكبيه ويشق طريقه فى عنف حتى بلغ موضعه من الطليعة ، وكان هذا الرجل هو سعد بن أبى وقاص ، سعد الذى كان أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، والذى فداه النبى بأبويه يوم أحد ، والذى رآه مقبلا ذات يوم فأشار إليه وقال لمن حوله : هذا خالى . سعد هذا رآه عمر يزاحم الناس يوم تقسيم الغنائم فلم يكن منه إلا أن علاه بالدرة وهو يصرخ فى وجهه : لم تهب سلطان الله فى الأرض فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك !!

ويقص علينا التاريخ مرة ثالثة وما أكثر ما يروى لنا التاريخ من أنباء عمر ، يقص علينا أن عبد الرحمن بن عوف قد أقبل يوما على الجبار العادل ومعه فتى من بنيه قد لبس قميصا من حرير ، فينظر إليه عمر غاضبا ويقول له : ما هذا الذى أراه يا ابن عوف ؟ لباس من حرير وابن الخطاب قائم على أمر هذه الأمة ؟ ثم يدخل يده فى جيب القميص فيشقه إلى أسفله . ويقول له عبد الرحمن وقد أذهلته المفاجأة : ألم تعلم أن رسول الله (ص) قد أذن لى فى لبس الحرير ؟ فيجيب عمر مصدقا له منكرا لمن عداه : بلى ! الحكاية شكورتها .. أما لبنيك فلا !!

وهكذا كان عمر حيال الأرستقراطية القرشية . يريد أن يسوى بين قريش وبين غيرها من العرب فى كل شأن من شؤون الحياة ، فلا فضل ولا تفوق ولا امتياز ، ولا شئ يمكن أن يفرق بين الناس فى مظهر من المظاهر ولا فى قيمة من القيم ولا فى حق من الحقوق . ولهذا أداردفة الحكم كما سبق أن قلت ، بما عرف عنه من عبقرية القائد وحنكة الحاكم وكياسة المدير .. وبقيت حقيقة تقف من هذه المقدمات المادية موقف النتيجة النفسية ، وهى أن تلك الكبرياء المقهورة فى نفوس قريش قد تنفست الصعداء بعد موت عمر ، فانطلقت فى عهد عثمان كما تنطلق الأسود السجينة قد أفلتت من قبضة السجان . ووقعت الفتنة التى كان يخشاها الحاكم الفيلسوف ، وهى أن يخلى بين قريش وبين ما تطمع فيه من سيطرة على العرب ، وما تطمح إليه من تحكم فى رقاب الناس ؛ وقعت الفتنة التى أودت بعثمان فيما أودت به من استقرار الأمور فى جيل من بعده أجيال . ويالها من نتيجة طبيعية تلك التى ترتبت على انقضاء عهد كان فيه ابن الخطاب كما صورناه : الدرة فى يمينه تأديب وتهذيب ، والكلمة على لسانه تشريع وقانون

يادرة عمر ، إن لك مكانا فى التاريخ .. ويا عدل عمر ، إن لك مكانا عند الله !!

أنور العداوى